الخليل الثابت

لامين الضربي (١)

ايها السادة — انني اشفق من كل قلبي على استاذنا الجليل خليل ثابت بك من هذا الموقف الحرج . فهو لا يملك الآن حتى ان يشيح بوجهه ، على مأثور عادته ، عن الثناء عليه. بل يجلس امامنا اليوم شبه مكتوف اليدين يتلقى كلاماً لا يحبه . لكن الناس يتأرون به لوفائهم من فضله ، صابحين بالفرصة السانحة كما صاح ارخيدس في الحمام . وهكذا الدنيا ايها المعلم الحبيب فورٌ وغور كما يقول العرب

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويومٌ نساء ويومٌ نسر

انت لا تحب منا ان نقول ما نقول . ولكن ليس للانسان الا ما سعى كما قالت الآية الكريمة . ولست تجهل قول الاكثيز : الحياة حلوة . ولكن أخذ الثأر أحلى

أيها السادة — قد تعلمتم بالنوابغ . فما هم وكيف ينبغون . النوابغ في كل جيل افراد سبقوا جيلهم . هم براعم أزهار دق احساسها ورهف فشعرت بالحرارة تدب فيها قبل أمثالها . فتفتحت اكمامها في غير فصلها . لذلك رأينا نوابغ كثيرين يعيشون في وسط غريب يجهلهم وينكرهم . حتى اذا أدركتهم المنية التي سبقوها في الطريق لم نجد سوى آثارهم الباقية . فنصبت لهم التماثيل ، وأقامت لتكريمهم حفلات ضنَّ عليهم جيلهم بها واستفادت من مواهبهم ما لم يكن يريد ، ذلك الجيل الناقل ان يستفيد

والنوابغ يحتملون إعراض الناس عنهم . لانهم يدَّخرون في صدورهم كنزاً ثميناً كالذي ادَّخره الاسكندر المكدوني ، حين أخذ يوزع ، قبل رحيله الى الشرق ، جميع اشيائه على اصدقائه فقيل له : « وبمَ تحتفظ » ؟ فاجاب : « بالأمل » . والنوابغ ينظرون من عزلتهم الهادئة الى اشهار الدجالين في عصرهم دون اكتراث ولا أسف فلكل امرىء يوم . ولكل محدٍ ساعة .

---

(١) القاه شباب النادي الشرقي في القاهرة سنة تكريم رئيسه خليل ثابت بك رئيس تحرير المقطم وعضو مجلس الشيوخ وهذه هي الخطبة التي خطبها فيها الاستاذ أمين الضربي

قال ديموستين اليوناني لفوسيون : « لا بد ان يموج الاثينيون يوماً ويقتلوك ». فاجابه فوسيون : « ولا بدَّ ان يعقلوا بعد الهياج فيقتلوك »

اننا نقوم اليوم بتكريم رجل عبقري فينا ، لا لنثبت ما هو ساطع كالشمس من اعماله بل لنثبت للقادمين بعدنا الذين هو في الاصل منهم ولهم ، اننا أدركنا شيئاً من قيمة الشعاع الذي انبعث من عصرهم الثاني الى عصرنا الحالي وكنا مستحقين لما امتحنا حظنا الكبير من نعمة التقديم والتأخير

ان بعض اتوابع السالفين عاشوا في عذاب وشقاء . ونحن اليوم نمجد ذكراهم ونقدر رسومهم بالازاهر والرياحين لكننا بمحض هذا الاكرام نحتقر معاصريهم ، ونأسف لنصر عقولهم

فأول عاطفة شكر منا الآن تتجه رأساً الى اللجنة الكريمة التي فكرت في تنظيم هذه الحفلة لانها مكنت بعض ابناء هذا الجيل ، من اثبات عرفانهم للجميل ، وقدرهم لقيمة هذا الاستاذ الجليل . ان محض وجود الرجل العبقري امتحان لمدارك معاصريه

ان الفصول التي يكتبها أستاذنا الخليل في المقطم كل يوم مدرسة جليلة وفيامين للعقول . فالى جمو القصد فيها واتزان التفكير ، يضاف اتقان غريب لصناعة الانشاء وسيطرة رهيبة على أساليب البلاغة : تكرب القارىء وتقوده كالأسير . لا بسلسلة من حديد ، بل بخيط من حرير

وهو فوق ذلك حرٌّ في رأيه مع الانصار والخصوم . رجل صادق صريح ، لا يتشبث بالمحال ولا يعاند في الصحيح . يتمسك بالرأي ما دام يراه حقًّا . فاذا لاح لهُ ما يرق يفتحهُ بوجوب التخلي عنه أحق وأسمُ للحق الذي يعلو ولا يعلى عليه . أما ما يقتضي ذلك من رحابة الصدر ومتانة الاخلاق فلا يمكن ان يجهلوه لان الفضل يعرفه ذووه

يذكرني خليل بك ثابت أطال الله بقاءه بالمرحوم هوراس غريلي محرر جريدة « نيويورك تريبيون » وأحد أساطين الصحافة الاميركية في عصره ، مع فرق بينهما في المسلك الخارجي تولى حقهُ كرور السنين . فلو كان ثابت مكان غريلي وغريلي مكان ثابت لاضمحلَّ الفرق وزال

يؤثر عن غريلي قوله : « ليس علمي فوق علم الله بما يجوز وما لا يجوز . فكل ما يسمح الله بحدوثه على هذه الارض لا أمتنع عن نشره في هذه الجريدة » . ويؤثر عن أحد كتاب معاصري غريلي وصفه التالي لهُ بطريقة مجونية : « كما رأينا جسماً مقذوفاً من نافذة الغريبون الى الشارع يقيناً انهُ جسم أحد السياسيين جاء يحاول بالرشوة افساد رأي المستر غريلي »

أما خليل بك فانطبع لا يقذف أحداً من نافذة المقطم . لان الايام والاحكام والعادات والاذواق تبدلت بتبدل العصور ، فذهب عهد الفروسية والحماسة ، وحلَّ محله عهد النعومة والكياسة . لكني واثق بأن أستاذنا الكبير سيسألني غداً عن مدفن المرحوم هوراس غريلي أين هو ، لكي يرسل اليه اكليلاً من الزهر

والآن آسف جداً على الكلمات ذات الدلالات الكبيرة كيف أفقدها سوء الاستعمال قيمة معانيها . فقد كان يكفيني ان أقول عن خليل بك ثابت انهُ صحافي لو بقيت لهذه الكلمة في الاذهان قيمتها الصحيحة

أتيح لي مرة ان أسمع المرحوم تيودور روزفلت أحد أقطاب الولايات المتحدة ورؤسائها الممتازين يخطب في نيويورك مرة فلا يستهل كلامه بمثل قول الزعيم : سيداتي آنساتي سادتي . بل يمن سامعيه بقوله : « أيها الرجال والنساء » . ولما سئل تعليل ذلك أجاب : « ان جوارحي تهتز كلما ذكرت وحية المرحوم والدي الحبيب قائلاً : « يا بنيَّ كن رجلاً »

فالصحافة ، أيها الرجال والنساء ، ناحية جليلة من نواحي الشخصية البارزة التي اجتمعنا لتكريمها في هذا المساء . ناحية تشمل المعرفة الدقيقة والاطلاع الواسع وتقتضي رحابة متناهية في الصدر لا تضيق ولا تملّ ولا تستهتر . فالجريدة مرآة الحياة . والحياة منشبة الاطراف . فكلما تقص اهتمام الصحافي بشعبة منها زلت نفسهُ عن الكرسي الجالس عليهِ جسمهُ . ولم يبق صحافيًّا الا مع التساهل

الكتابة يا سادتي شيء . والصحافة شيء آخر . تلك صناعة يتعلمها الطلبة في المدارس . أما هذه فلا في المدارس يتعلمونها . ولا بالتمرين يحذقونها . بل هي نعمة يسبغها الله سبحانه على افراد فتحلي ذاكرتهم من كل فن بخبر . وتزينهم بكرم في الاخلاق وسعة في الصدور وشجاعة في النفوس . فلا يضيق بهم بطارق . ولا يضنون بابتسامة على متضايق

اتيحت لي بعض الفرص فراقبت خليل بك ثابت في مكتبه كالاسد في عرينه . تنهال عليه الاخبار كالامطار من مبعوث بهز الاعصاب . ومقلق يقبض المضاجع . ومحزن يقطع رباط القلوب . ومدهش يبلبل الافكار . ومكدر يفور له الدم في العروق . فرأيت الصراحة والسماحة والرجاحة في صدر واسع كالاوقيانس ، يحيش عناصر الحياة فيه كالراكين ، ويبقى وجهه صافياً كالقبة الزرقاء . يعطف على الجميع بارتياح . ويشارك الجميع في الافراح والاتراح . جزى الله والده عميد القوم المرحوم داود ثابت على اتحافه الامة المصرية هذا الخليل الثابت

سادتي — سئل نبي العرب الكريم من أشعر الناس . فأجاب « من قال « ومن » . وقد عنى زهير أن ابي سلمى صاحب المعلقة الحكيمة التي جاء فيها

ومن يكُ ذا فضلٍ فبخل بفضله على قومهِ يُستغن عنهُ ويذمم

وفي لبنان مثل سائر يذم بقول : « من كان فيه خير . فلقومه خير » . فاستاذنا الخليل خص من روحه شريفة في لبنان ، ومن دير القمر بلد الابطال الاشاوس ، فحل بالجنسية المصرية ووقف حياته على خدمة مصر العزيزة . لكنهُ لم يبس من عطفه ورعايته الارض

التي رأى النور فيها والقوم الذين ترعرع بينهم طفلاً ويافعاً . وكيف يسعى وفي عروقه دم طاهر مؤسس على لبن تي أظنكم كلكم تقريباً قد عرفتم سياسيًّا فرنسيًّا يدعى المسيو فرنسوى جورج بيكو . سمعته بأذني يخطب مرة في حلب ويقول : « جاءني بالامس من يزعم انهُ يحب فرنسا اكثر من بلاده . فأجبت فوراً ان فرنسا لا تحب من لا يحب بلاده اكثر منها » . رحم الله داود عمون ، وهو ايضاً ابن دير القمر القائل :

أحب بلادي على رغمها ولو لم يكن لي سوى عارها

على ان كلامنا أيها السادة عن بلادنا وبلادكم وبلادهم ، وجميعها بقاع صغيرة كائنة من وطن كبير سيكون ، لن يبقى صحيحاً الى امد بعيد بحول الله

فالدنيا صائرة بضيعة حالها الى التآلف . هذه الدول العظيمة التي تتناحر اليوم وتتفانى لن تفنى ولن تزول بل تقترب بعض اقتناها بعضها من بعض . هذه الامبراطورية البريطانية التي لا تغيب الشمس عنها . كم وقعت بين اجزائها حروب فصيرتها اخوات . وهذه الولايات المتحدة مؤلفة من ثمان وأربعين دولة مستقلة بعضها عن بعض في الحدود التي يبيّنها الدستور حتى لا تبغي في قانونها بغي نشوب الحرب بينها لكنها صارت الآن أدرى بمصلحتها فلا تتحارب

وسيأتي يوم قريب ان شاء الله تزول الفوارق السياسية الحقيرة من بين القلوب الخافقة بدم واحد بطهرة بعاطفة واحدة في بلادنا العربية وتعود اجزاؤها المصرية واللبنانية وغيرها فتلتحم في عهد الفاروق الحبيب . كما كانت ملتحمة في عهد جده الكريم ، محمد علي العظيم ، وعهد الفاتح ابراهيم

خليل ثابت بك باتساع صدره لبني وطنه الاول والاخير يعد ركناً من الاركان التي سيقوم اتحاد البلاد عليها . رأيته مرة بعد مرة يستقبل اشخاصاً لا عهد له بهم ، محتاجين الى عونه الادبي . فكنت أتمثل في حميته ورحابة صدره واندفاعه جباراً من جبابرة الزمان يجمع الاقطار بعضها الى بعض . ويحزم القلوب والارواح برابطة المروءة والشهامة

وقد طفت في الاقدار في الارض ، بالطول والعرض ، وسمعت ورأيت ولقيت ورعيت ، فلن أنسى طلاقة وجه الخليل لكل ناشد رأي او طالب مشورة ، بل كما قال زهير :—

ترانا اذا ما جئتهُ متهللاً كأنك تعطيهِ الذي أنت سائله

ولعمري ان ما أقوله الآن فيه لا يجديه ، ولا هو في حاجة اليه ، ولكن نحن البارقين بالفضيلة المستترة نحتاج الى المناداة بها على السطوح . لان الحقيقة كما قال المرحوم شبلي شميل ان تعبر لا ان تعبر . ورحم الله ولي الدين يكن حيث قال :—

وهذي عمون الله مني براءة فيا أيها سحاً ويا أيتها اشهدي